رحيل شيخ المطربين العرب

صبري مدلل: جدير بأكثر من باقة ورد يتيمة قدمتها وزارة الثقافة!

صبري مدلل يرقص على المسرح

صبري مدلل

دمشق - «القدس العربي»

من أنور بدر:

ربما يكون صبري مدلل أحد أهم أسمين في الغناء السوري، فلولاه وصباح فخري لاعتذرنا عن وجود أغنية سورية بالأساس، ووفرنا ما يُصرف سنوياً على مهرجانات الأغنية السورية، التي لم تفلح حتى الآن في تقديم اسم واحد، أو أغنية على مدى عقد ونيف، وهذا يؤكد أن الفن الأصيل لا تصنعه المهرجانات، كما يؤكد أن الفن لا يمكن أن يتطور بعيداً عن مجتمع ديناميكي يستطيع الإنسان فيه أن يحلم وأن يكون حراً.

ففي عهد النهضة القومية انتعشت الأحلام وبرزت أسماء لامعة في الأدب والفن والسياسية، ومع أفول هذه الحقبة ساد الخواء العربي، وتدهور كل شيء من الأحلام وحتى السياسية مروراً بالأدب والفن والأغنية. ونحن الآن بدل أن نحتفي بولادة شاعر أو فنان كبير، فإننا يوماً تلو الآخر نودع قامات كبيرة في كل الميادين والاختصاصات، قامات ندرك أننا لن نستعيض أمثالها في الزمن المنظور. وكان صبري مدلل أصغر المؤذنين سناً وآخر الراحلين.

يقول الباحث محمد قدري دلال في كتابه «شيخ المطربين... صبري مدلل» الذي صدر هذا العام بمناسبة اعتماد حلب عاصمة الثقافة الإسلامية: «بأنه ولد في الدار العربية التي تقطنها عائلة المدلل في حي الجلوم من مدينة حلب عام 1918، وأورثه أبوه كثيراً من أخلاقه مع الأمانة والاستقامة والتواضع وحب العلم، واكتشف الوالد أحمد جمال صوت ابنه باكراً من خلال قراءة القرآن لدى شيخ الكتاّب، ثم من خلال إنشاده بعض التواشيح في حلقة الذكر التي كان يصحبه إليها، وهو لم يتجاوز السادسة، وفي الثانية عشرة دفعه أبوه إلى المعلم عمر البطش الذي رعاه وقاده إلى الطريق التي تابع فيها حتى أصبح نجماً وعلماً يشار إليه بالبيان.»

وفي رواية أخرى أن والده أخذه في عام 1930 إلى الشيخ أحمد المصري لتعليمه القرآن والتجويد، واكتشف المصري موهبة الفتى وجمال صوته، فدفع به إلى المعلم عمر البطش ليتعلم الغناء والتلحين على يديه، وقد علمه البطش حقاً فن الموشحات وعلوم المقامات والأوزان والضروب، بعد ذلك تعلم العزف على العود، وأتقن آلات شتى موسيقية، وبرع في «الدف» كأستاذه البطش.

يقال أن البطش كان يأخذ منه نصف ليرة على الدرس الواحد، لكنه بعد أن لمع نجمه في عالم الغناء، وأصبح يحيي الحفلات الدينية والعامة مقابل خمس ليرات، ظلّ يعطي ليرتان لأستاذه.

ونحن الآن نستطيع الحديث عن أهم حاضنتين لموهبة صبري مدلل الغنائية، الأولى كانت المدرسة القرآنية التي ضبطت قواعد التجويد ومخارج الحروف وأحكام المدّ وأصول النطق لديه، وقد دفعه الشيخ أحمد المصري كمكافأة له ليؤذن في الناس للصلاة، فكان الناس يجتمعون لآذانه العذب، وهو أصغر المؤذنين سناً. و يقول البعض أنه بدأ مؤذناً في جامع الكلتاوية وآخرون يحددون جامع العبارة قبل أن ينتقل إلى الجامع الأموي الكبير في وسط مدينة حلب.

الحاضنة الثانية لموهبته كانت المدرسة الحلبية التي حفلت بأهم الأساتذة في فن الغناء والتلحين منذ بدايات القرن المنصرم، حتى أن اسمها ارتبط بفن القدود الحلبية، كما ارتبطت الموشحات بالأندلس مكاناً وعصراً، ولا تزال حتى الآن تعرف حلب بمدينة الطرب. وهذا أتاح لصبري أن يتتلمذ على يد أسماء كبيرة كعمر البطش والشيخ علي الدرويش وبكري الكردي، وسواهم. وقد عمل في إذاعة حلب مع سواه من المطربين حين افتتاحها عام 1949، وكانوا يؤدون وصلاتهم على الهواء مباشرة، وأول ما غنى للملحن بكري الكردي أغنيتين هما «ابعتلي جواب وطمّني» وّ«بيجي يوم وترجع تاني» وهما للشاعر حسام الخطيب. لكن والده استاء من العمل في الإذاعة بعدما ذاع صيته، فترك الإذاعة عام 1954، وشكل فرقة خاصة باسمه للإنشاد والغناء الديني، وقد برع في ذلك أيما براعة، خاصة وأنه كما يقول قدري دلال «لقد استلهم ما خزنته ذاكرته من أعمال سيد درويش والقصبجي وعبد الوهاب وذكريا أحمد وداوود حسني، فأعطى لوناً جميلاً في أثواب لم يعرفها الإنشاد الديني قبلاً ولم يعهد مثلها في قوالبه».

وقد استمع إليه الموسيقار البلجيكي «كريستيان بوخه» وأعجب بأداء الفرقة وصوت صبري مدلل الشجي، فسجل له اسطوانة بعنوان «مؤذنو حلب»، وضعتهم هذه الأسطوانة على خارطة الغناء العالمي، حيث نظمت لهم عام 1975 حفلة في قصر الثقافة في باريس، ودُعيت الفرقة بعدها إلى العديد من العواصم العربية والأوروبية،وكانت أهم مشاركاتها في مهرجان الموسيقا العربية «لامونديال 1986»

مع هذه النقلة التي حدثت عام 1975 أدخل صبري مدلل الآلات الموسيقية إلى الفرقة، وبدأ يطور في أدائها، ويشارك مع رقصات محلية كرقص السماح، مما جعلها تتألق في العديد من المناسبات، كما تطورت الإنشاد الديني. وعاد صبري مدلل إلى الغناء منذ ذلك التاريخ، بل يمكن القول أنه شكل هوية جديدة للأغنية السورية المتطورة، خاصة وأن صبري يعتمد على الارتجال والتطريب في أدائه، وأذكر له في إحدى الحفلات وكان يغني جالساً، حين انتصب فجأة وقد تملكه توق صوفي، وأخذ يؤذن في الجمهور الذي ازداد إعجاباً وإكباراً بفنه العظيم، حيث لم يفصل الغناء عن النشيد الديني أو الآذان.

وكما أعطت مدينة حلب للغناء العربي، فقد أعطاها فنانوها الكبار على مدى القرن المنصرم، وها هو المخرج السوري محمد ملص يصور فيلم «حلب ... مقامات المسرة» عن المطرب صبري مدلل الذي عاش فيها بوداعة لا يفارقها إلا لحفلة هنا أو هناك، وهو ينوس ما بين دكانه البسيط وبين شرفة المئذنة، وكان له فيها حفلة أسبوعية في دار عربية في حي البياض كما يذكر الدكتور عصام الزعيم الذي يؤكد في رثائه له «جسدّ صبري مدلل التمازج العبقري الحلبي بين الدين والإنشاد والموشح الديني وبين الدنيا والغزل والتغني بالعشق والجمال، لم يكن أبو أحمد مؤذن جامع حلب الكبير والمنشد الديني الكبير فحسب - وقد كان سيداً من سادة عصره، وشيخاً من شيوخ الإنشاد والتوشيح الديني في زمانه - وإنما غنى أبو أحمد بأطرى الخلجات وتغنى بأرق صور الجمال يصنعه الخالق الباري ويهبه الفنان للمعشوقة ويتصوف في حبه البشر وجداً وتمجيداً، وخلافاً لما قيل في المدلل... فإن هذا العلم، السارية المتسامق في سماء حلب والعروبة كان مبدعاً في التلحين والإنشاد والغناء الديني مثلما كان عظيماً حافظا ومطورا ومبدعاً للألحان والأنغام والمقامات والأغاني الغزلية، وهكذا مدرسة الفن ومنهجه ومشربه ومطمحه في حلب هوى صوفي ديني وهوى غزلي دنيوي يتكاملان ويتفاعلان ولا ينفصلان في عملية الخلق الفني والإبداع».

أهداه الرئيس السوري بشار الأسد منزلاً في حلب تكريماً له، ونال درع مهرجان التوين عام 1998 في الكويت، وهو من المطربين القلائل الذين ظلوا بعد الثمانين حولاً يقفون لساعات أمام الجمهور يغني وينشد بكل جوارحه وأحاسيسه، حتى أن رئيس جمعية العاديات في حلب محمد قجة يروي أن الشيخ صبري كان عليلاً ذات يوم ويستمع إلى الفرقة تغني بوجود الأديب المصري جمال الغيطاني، لكن حين وصلت الفرقة إلى موشح «أحمد يا حبيبي» انطلق يغني ويتمايل بطربوشه الذي لم يفارق رأسه لمدة ثلاث ساعات بين موشح وآخر وهو يغالب المرض.

هذا الرجل العظيم رحل بصمت في 2006/8/20، ولم تجد وزارة الثقافة أكثر من باقة ورد في جنازته، ولم تعرف مؤسسات الإعلام أو الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون التي عمل فيها منذ أكثر من خمسين عاماً كيف تستفيد من نجاحات صبري مدلل في عالم الغناء العربي، ولا هي استفادت من شهرته التي غزت العواصم العربية والأوروبية، وإن كنا ندرك أسباب عطالتها في حياته، فكيف لا تؤكد عطالتها في مماته. لكن صوت صبري مدلل سوف يبقى للأجيال القادمة، هوية حقيقية للأغنية السورية التي لم يكتشفوها حتى الآن.

تطور مضامين الأدب الفلسطيني: خالد جمعة نموذجا

نادية عيلبوني *

■ عادة ما تلجأ الشعوب التي تقع تحت قبضة احتلال غاشم يستهدف محو وجودها، إلى التمسك بثقافتها وكافة أشكال إبداعاتها، كحصن أخير في معركة الدفاع عن هويتها. ولعل الهوية الفلسطينية التي تعرضت لكافة أشكال المحو والتغييب،لا تشذ عن هذا المعطى التاريخي الذي يبدو بديهيا من الوجهة العلمية للاجتماع البشري. فقد لعبت الثقافة والأدب الفلسطيني وكافة أشكال الإبداع الأخرى دورا متميزا في إعادة بلورة الشخصية الفلسطينية.

الانتاج الإبداعي الفلسطيني هو إضافة إلى ذلك، تعبير عن محصلة ثقافية تقاس على أساسه قدرة هذا المجتمع على التجدد والحياة على الرغم من كثرة المعيقات والتحديات.

هناك بلا شك الكثير من الرموز الإبداعية الفلسطينية التي تصدت من خلال أعمالها للدفاع عن الهوية الثقافية الفلسطينية. هذه الرموز مثلها جيل الرواد الأوائل كالروائي «اميل حبيبي» والشاعر «شكيب جهشان» والشاعر «محمود درويش» و«سميح القاسم» و«فدوى طوقان» إلى آخر ما هناك من أسماء تناول أعمالها النقاد بمزيد من الدرس والتمحيص. إلا أن الملاحظ أن الحركة الأدبية والإبداعية الفلسطينية عموما لم تتوقف، ولم ينحسر دورها عند ما يمكن تسميته بجيل الرواد الأوائل، بل تواصلت مع فارق أن النقاد لم يولوا تلك الأهمية للجيل الجديد من الأدباء والشعراء الفلسطينيين على الرغم من التطور الكبير الذي طرأ على أشكال ومضامين هذا الإبداع.

وربما تكون محاولتنا تلك في تناول بعض أعمال الجيل الثاني في حقل الشعر والأدب دعوة للنقاد للاهتمام اكثر فأكثر بتطور الحركة الأدبية بمختلف مساراتها في فلسطين المحتلة عام 48 او في فلسطين المحتلة عام الـ67.

خالد جمعة الذي ينتمي إلى مدينة غزة هو شاعر وأديب معروف بانتاجه في عديد المستويات الأدبية كقصيدة النثر والنص المسرحي والأغنية وكتابة قصص الأطفال. كما أنه ينتمي إلى الجيل الثاني من الأدباء الفلسطينيين الذين حملوا في مضامينهم الإبداعية رؤى جديدة في الكثير من جوانبها، سواء تلك المتعلقة بالوطن أو الأخرى التي تتناول جوانب الحياة المختلفة، متجاوزا الشروط القاسية التي فرضت على تلك المدينة التي عانت طويلا، ولا تزال، من حالات الحصار والعزل عن محيطها وعن العالم، والتي شبهها كل من زارها بالسجن الكبير.

قصيدة الوزن والنثر: والخروج عن الصورة النمطية لمفهوم الوطن:

لعل أول ما يلفت في كافة أعمال خالد جمعة وخصوصا الشعرية منها، هو كسره الصورة النمطية للوطن : والتي عودنا عليها الأدب الفلسطيني في مراحل سابقة. ولعل مضامين ما تناوله الشاعر سواء في قصيدة النثر أو الشعر الموزون، الذي مثل بدايات انتاجه، تكاد تكون تمردا على الموروث الثقافي.. يتجلى هذا في تناوله لموضوع الحرية بكل فضاءاته المفتوحة. فنراه يخرج بالوطن بمعناه الطوباوي السائد كفكرة مجردة ومقدسة، إلى المعنى الذي يكاد يكون منسيا من حياة الفلسطيني. الوطن بما هو المكان الأول الذي يحمل معه كل بديهيات الحياة المباشرة والبسيطة في كل زمان ومكان. أي المكان الذي يتيح للإنسان إمكانية التفتح والتعبير الحر عن حاجاته الطبيعية. يبدو ذلك في قصائده العامودية الأولى كما يبدو في قصيدة النثر:

وطني بلا همس الصبايا والندى وبدون شمس أو رياح تصفر

وطني بلا طعم ولا لون ولا عنب، ولا وطن، ولا يتغير

وهذا لا يعني في مطلق الأحوال أن حال التمرد على الظلم والقهر الذي عايشه الشاعر الفلسطيني قد تبدد بل ربما وبحسب الشاعر لا تحتمل التطرق لها لشدة وضوحها :

لماذا علي أن أكتب وجعا يشهد لي..؟

الأمكنة تقف على قدمي، وقدماي لا تقفان عل لغة

وهو في سجنه الكبير الذي فرض عليه كما فرض على سكان مدينته، بات أكثر شوقا للتعرف إلى كافة أشكال الحرية الإنسانية :

أعشق تدمير الثوابت يا ربي لن يحتويك القلب إذا لم تنسفي

إن ردني الصبح العنيد أشقه إني بفجر العاشقين مطالب

الروح ذاتها نجدها أيضا لدى جمعة في قصيدة النثر في ديوانه «لذلك»:

تتلمذت على يدي البحور

كل ميزان حاول صياغة روحي:

كسرته

عشقت الاختلاف الكبير الذي بيننا

وكأن الشاعر يعلن تمرده على حالة التماهي مع الأنا الجمعية، بما هي رد فعل غريزية لمواجهة المحتل التي فرضها المحتل، ذلك التماهي الذي ينال من هوية الفرد ويختزلها لصالح المجموع. والوطن الغائب بالمعنى الذي ينشده الشاعر هو الحيز الخاص لهذا الفرد الغائب.هذا ما يمكننا قراءته في قصيدة «تداعيات الصمت والسكون»:

عندما قصفوا هواء الشارع

قمت قليلا

كي أرى حصتي من الهواء

لم تداهمها الشظايا

تركتهم يدافعون عن هوائهم

ونمت

ولا يبدو الشاعر الفلسطيني بعيدا عن امتداداته الأخرى الأوسع : الشرق بعمومه.وهذا الشرق على أية حال، وكما يراه جمعة، ليس أحسن حالا من الحال الفلسطينية: فهو أيضا ممتلئا بالعنف إلى الحد الذي يستخف فيه بكل حاجات الإنسان:

ذبيحة تشتاق للذبح

الفضاء الذي للشرق

متبلا باختصارات كاملة للروح والجسد

ثم

البلاد صيغة العشائر الحديثة

تطوف على كلمات التقدم حين يكسرها

قاموس الذين خرجوا إلى ليل أشد

الجديد أيضا في مضامين الشاعر الذي ينتمي إلى الجيل الفلسطيني الثاني هو تلك الواقعية المفعمة بالسخرية الممزوجة بالحزن.فنراه ينأى وبشكل واضح عن المضامين الظافرية للخطاب الذي ينقله السياسي مستخفا وساخرا بنغمة ذلك الخطاب. ففي قصيدة أبي من ديوان «لا زلت تشبه نفسك» يعبر الشاعر عن خيبة أمله، ويبدو وكأنه يخاطب جيل النكبة الأول الذي لا يزال يحمل حلم العودة، يقول مخاطبا أباه:

على طبق من «هزيمة»:

نجيئك محملين بانكسارنا الموزون،

بانحسارنا الذي يحمل مبررات كثيرة،

ونتخلص على يديك من مسؤولية الحلم..

صدقني، لم نفقد ما علمتنا إياه لأننا لم نفهمه

رابط وحدك، قاتل وحدك، احلم وحدك

فنحن على طبق من هزيمة نقدم الانتصار

الذي بلا لون لعدو بلا طعم.. البلاد لم تعد

تحترم خطوتنا...

نعتذر

هذا ما ظلت لنا القدرة عليه

دواوين جمعة كذلك تأتي محملة بالأسئلة الفلسفية التي تحمل طابعا وجوديا وهي تستقي من مشاهد لعبة الحياة والموت، معاني تفيض بالمفارقات التي تصل حد السخرية من الحياة ذاتها:

خطيئة هو الظن أن جواب الموت

هو الحياة،

جواب الحياة في الموت..

خطيئة كذلك..

هي العيون الإجابة..

هي العيون الأسئلة..

أو في قوله من ديوان «لذلك»:

لماذا لديك كل هذا التوازن بينما لا هوة تحتك؟

أو في قوله:

تسبكني قناعة أن الأشياء خطها قلم

رصاص. وأننا جميعا نعشق المحاة

وأي عالم يأتي ولا يذهب: حقا تعرفين

الشاعر الذي يرى واقعه بكل عيوبه ولا يفوته تحول الظاهرة الدينية في مدينته إلى ما يشبه الهوس الذي يبتلع الطابع الحضاري للمدنية.

وفي قصيدة المدينة من ديوان «لذلك» يقول

أسواق المدينة ابتلعت مدينتها

المصلون جاهروا بفروضهم في حضن

مسجد

يكعّب المسافة نحو الجنة عبر نافذتين

ضيقيتين

أما الإمام

كان تميمة لمكاسب التجار

لا يمكننا بالطبع الإحاطة بجميع المضامين التي عبر عنها جمعة في قصائده، بل لعل انطلاقنا لشكل آخر من القصيدة المغناة للشاعر، يلقي بالمزيد من الضوء على ما نود أن نلفت إليه.

كتابة الأغنية بأدوات جديدة:

أما في مجال كتابة الأغنية فإن الشاعر هنا يتألق على نحو آخر. ونجده يحاول تجسير الاختلاف بين عالمين. الأول الذي يمثله الشعر الذي هو في عمقه تعبير عن مضمون الأنا الفردية والثاني تمثله المضامين الروحية والعاطفية التي تمثلها الأنا الجمعية والفردية معا، بذائقة شعرية خاصة وشجا حمل معه عاطفة متدفقة من خلال فيض الصور:

ع دمعة في مفرق وداع

كتبت الليل على خدودك

وأنا حدودك

طلي من وجع الغناوي والسفر

تلقي اللي راح

عاقد على رسمك ايديه

يستنى في صدرك تحمليه

وتشفي وريدو

الشاعر الذي يغني الحب لا يفوته أيضا، نقل الصور والمعاني، حين يمزج الحالات الإنسانية بحالات الطبيعة. فالروح شأنها شأن الطبيعة، مساحة واسعة تماما كالبراري. والحب مثل المطرالذي يغسل «براري الروح» ويضيئها :

سلمتك للشتا

يغسل براري الروح

يضوي نجم مجروح

ضوى في ليلة وغاب

وهو يكرر المحاولة،عندما يذهب حتى حدود أنسنة الأمكنة لتصبح ذات معنى، لنجده يخاطب شاطىء غزة وكأنه يخاطب شخصاً عزيزاً وحميماً:

في شطوطك صرخة معاني لهفة وداع طويل

وأنا اللي صياد المواني عاشق حكاوي الليل

خديني يا ميه ندا ع مرسى جيرانو قمار

دنياتو ما بتعرف حدا ومغزلة بأسرار

خديني من حزن الورق خوفي مش لاقيلو كلام

من دمعي يلي ما انخلق سمى عليك ونام

ومثلما يؤنسن الشاعر في صوره المكثفة الأشياء والأمكنة، نراه يفعل الشيء ذاته مع الإنسان الذي يتخذ صور الطبيعة، فتخلط صور الحالات الإنسانية والمشاعر إلى الحد الذي تكاد تغيب فيه الحدود بين النهر المتدفق وبين الروح:

عودك فضا نعسان

يلعب في مدى روحي..

عودك نهر منسوج من لهفة ضلوعي..

ينزل مطر ويفيض لو نشفت دموعي..

عودك أنا وأنت.. قلب انقسم..

لا أنا عارف في صدرك نبض

واللا في ضلوعي

لا يتسع المجال للحديث عن بقية المضامين الأدبية التي تناولها الشاعر. فالكتابة المسرحية سواء للأطفال أو للكبار كمسرحية «شايفنكوش» ومسرحية «العبوا بعيد» واللتين أخرجهما المخرج والفنان التشكيلي المتميز)إبراهيم المزين(، لاقتا صدى كبيرا. واعتبرهما النقاد (إضافة حقيقية وقوية للمسرح الفلسطيني وذلك من خلال مقالات نشرتها الصحف الفلسطينية والعربية والعالمية). أضف إلى ذلك أن الشاعر تميز أيضا: في كتابة قصص الأطفال ونشر كما ترجمت له بعض القصص المتميزة والتي اعتبرها بعض المهتمين النمساويين بالأدب العربي «أدبا ذا مستوى حداثي يستحق تسليط الضوء وترجمته لما يحمل معه من مضامين تربوية حداثية ذات طابع إنساني عام»، مثل قصة «دموع اللون الأصفر» وقصة «الشبلان» اللتين تتحدثان عن التنوع الإنساني بطريقة سلسلة وعذبة تتناغم وهي تحاكي ذهنية الطفل ومخيلته مع مفهوم الحرية والحقوق الإنسانية.

وبقي أن نشير أخيرا، الى أن الشاعر والأديب الفلسطيني خالد جمعة قد استحق مؤخرا وعن جدارة، الفوز بالجائزة الثانية لأدب الأطفال في مسابقة «ديوان العرب» من خلال قصته «ثلاثة أرجل». كما وتعمل حاليا إحدى المنظمات الثقافية النمسوية المعنية بثقافة الطفل على ترجمة قصة «دموع اللون الأصفر» إلى اللغة الألمانية، الأمر الذي يعني بالتأكيد أن بإمكان الأدب الحقيقي نيل الاعتراف الذي يستحقه مهما بدت المعوقات الخاصة حائلا دون ذلك.

---

* كاتبة وصحافية فلسطينية مقيمة في فيينا

لقميصي تعب الحدائق حين يتأخر البستاني او يموت في الطريق

زياد خداش *

(الى رشا النائمة في عين الموجة)

ثلاثة امكنة لا تبرح دمي، لا تخون حنيني، امكنة تنام وتحلم معي، امكنة لاتموت، لا تستريح مني ثلاثة امكنة هي انا، هي تاريخ الندى في روحي، ان مت تنوب هذه الامكنة عني في استلام بريدي، بريد الحواس، تدافع عن اخطائي، وتطبب لي اورام غيابي، ثلاثة امكنة، ثلاثة ملائكة خلقتهم من صلصال هياجي، من قماش مجهولي، امكنة ليست قابلة للزيارة لانها داخلي، تتنفس من عطشي، ترضع من صحرائي اشمها، اتحسسها. في الليل انهض من فراشي، والعالم نائم، اوقظ الامكنة الثلاثة، امددها على سريري بجانبي، نصبح اربعة امكنة، نختلط مع بعضنا البعض، نضيع فينا، ونبحث عنا، لا حدود، لا بداية ولا نهاية، ثلاثة امكنة، يرجني زعيقها داخلي، ويرميني على قارعة الوقت، ثلاثة احصنة تصهل فوق رمشي، ثلاثة تلال مشجرة تخفق فوق خاصرتي، لا تريحني ولا ترتاح. الا تنامين ايتها الامكنة؟ الا تشتاقين لغيبوبة او سفر او موت مؤقت؟؟

المكان الاول. القدس. قبر ليدينا

طريق ترابي، بعيد عن صخب العربات والازقة ونداءات الباعة وعيون الاهل والجنود، طريق ترابي طويل، بدايته درج عتيق، نهايته فراغ الخلاء، تمشي بجانبي، خائفة وسعيدة، امشي بجانبها صغيرا ومختفيا، معطفها الجلدي بني، قميصي الشتوي اسود، المسافة بين يدي ويدها، هي نفس المسافة بين طرف ابتسامتها وطرف شهقتي، على جانبي الطريق ازهار كثيرة تطل من حدائق مجهولة، صخور كبيرة وبضعة قبور، وعلى الارض شقائق نعمان يمشي معنا.

طريق ترابي طويل، يكفي لارتباكنا وجمالنا، يفيض بهما، ساخرا وكريما يوزعهما على الطرقات الاخرى، الان في منتصف الطريق، اليد باليد خافتتين، باردتين،حزينتين، الان اشم طرف معطفها، تتفرس قميصي، لمعطفها رائحة اعتراف غير مكتمل، لذيذ، مؤلم، لقميصي تعب الحدائق حين يتأخر البستاني او يموت في الطريق، الطريق لا ينتهي، يدها تخرج من يدي فجأة، يدي تهرب الى جيبي، يدها تختفي، لمن هذه القبور؟ سألتها؟

ليدينا، اجابت وهربت بعينها نحو التلال، طريق ترابي طويل ولا ينتهي.

المكان الثاني. رام الله البيت الصامت والعتيق

مهرجان رام الله للثقافة والفنون، كنت اجلس معها في ساحة كبيرة مليئة بالبشر اطفالا ونساء ورجالا ومراهقين، نسبح في شغب الكراسي، وازدحام الاكتاف، على المنصة كانت فنانة جميلة تغني عن الناي والمدن والرحيل والخوف، البشر في عالم وكلمات المغنية في عالم اخر، فقط انا وهي من اصغى بحب وصمت، فقط انا وهي من اوشكا على الذوبان في ثلج المعاني.

بعد نصف ساعة سئم البشر من المعاني الغريبة والصوت الهادىء، تفرقوا كل الى لا معناه، الى لا جدواه، بقيت معها، ليس بجانبها تماما، الوضعية التى تسمح لي ان ارى جانب وجهها الايسر، نظرتها الغارقة في الرمل واللينة، اغماضة عينيها السكرانتين، غناء خصلاتها الاخرس على ايقاع الموسيقى، كان الصيف قاتلا تلك الليلة، لا نسمة، لا شيء يتحرك سوى حبات العرق فوق الشفاه الرطبة، يا الله! كم كان السكون مدويا ومعذبا! سكون الشجر والتراب، والله، كان غناء الفنانة الناعم والهامس يكثف هذا السكون ويعطيه معنى التوقف النهائي والمريع الساخن، ثمة اشياء لا اراها كانت تختنق، وتنحشر في الزوايا، ثمة صياح مخنوق كان يسيل من شقوق جدران السور المحيط بالساحة الواسعة، هل كنت احبها؟ هل اجرؤ على الاعتراف؟

كانت انثى حقيقية بعيدا عن شروط المدنية الكذابة، كانت التعديل الاخير الذي رسمه الله على نموذج الانوثة بعدها ذهب الله ليستريح، بعدها همس الله لنفسه: الان اكملت رسالتي، الان صرت الها.

انتهت الحفلة، عائدان الى البيت مرهقان ووحيدان، بيت عتيق كانت تسكنه، بيت بست حجرات، وشرفة زجاجية مطلة على شارع جانبي، هادئ، دخلنا، ارتمت على الاريكة القديمة، تدندن لحنا، وتقول ضاحكة: اه لو عثرت على رجلي في هذه المدينة سابقى فيها، الرجل هو المدينة، هل كانت طعنة في رجولتي؟ جلست على الارض احدق في الجدار شبه المعتم، صمت جسدها، سمعته ينام، نهضت، اتجول في الحجرات، في غرفة نومها، مشيت، تمرغت بشراشفها ونافذتها، جلست على سريرها، اقراطها على الطاولة وعطرها مسكوب نصفه، كوب النسكافيه الملون، على الطاولة وحيد ومنتظر، الجدار بجانب سريرها مكشوط،البلاط تحت اقدامها بارد وباهت، كتب لهدجر وسارتر على الارض، خرجت الى الحديقة، اتجول حول البيت، ابحث عن لغز السحر فيه، مدعيا اني لا اعرف ان الجسد النائم على الاريكة هو السحر بعينه، هل كنت احبها؟ وهل اجرؤ على الاعتراف؟

عدت الى الحجرات، كان الجسد النائم قد استيقظ، كان صديقي الحميم يجلس بجانبها يهدهد بعينيه كسلها الرائع عيناه الاسرتان المليئتان بالشغب. انتظراني ساذهب لاستحم، قالت تاركة جسدها لدينا وذهبت.

مع صديقي في الشرفة، بانتظارها، سمعنا صوت الماء، ام تراه صوت جسدها،؟ الذي يستحم الماء به؟ خرجت، مبلولة الشعر مجنونته، خفيفة الملابس، ضاحكة، بعيدا عني وقفت امام صديقي، تطلب رايه في فستانها الخفيف، مد صديقي يده تحسس طرف فستانها واطلقه من يده بحركة دائرية قائلا: انها النجوم التي تطير فوق فستانك، وانه الله الذي ينحني امام عبقرية شعرك.

ضحكت بصوت عال، غصت انا في قعر الاريكة، لم اجدني، سمعتها تقول فيما يشبه الغيبوبة الصاحية: موجهة كلامها لصديقي: اه لو اعثر على رجلي هنا لعثرت على مدينتى الاخيرة، لم يجب صديقي، سمعته يتنهد، سمعتها تنحني باتجاهه وتسقط في عينيه العذبتين، ساد صمت غريب، صمت الصيف اللاهب، صيفهما، غادرت سيدة الكسل الرائع، الى مدينة اخرى، لم تجد رجلها هنا، لكنها عاشت في صيف صديقي ليلة كاملة، بحثا عن ماذا؟ لا ادري اتوهمت انها رات اضواء مدينة فهرعت نحوها، واكتشفت بعد احتراق خفيف انها اضواء موكب عربات؟؟، حدث هذا منذ سنوات، البيت العتيق لم يغادر، اسكنته دمي وتنهداتي، اسكنته انا، البيت العتيق هو امرأتي. انا وجدت امرأتي، وجدت مدينتي، وهمي. كل يوم امر عن بيتي العتيق عني، كل يوم ابكي، وابتسم. وسط حيرة اصحابي وحيرتي انا. وحيرة الجيران. وحيرة البيت نفسه. وحيرة الحيرة نفسها.

المكان الثالث. قتل الاحباء في ساحة الشهداء

هنا كان حسين البرغوثي يمشي ببطء، هنا جلس على هذا الحجر، هنا نظر الى الشجرة، وهنا قال لي: اقتل احباءك، كان يقصد الكلمات والعبارات العذبة والرائعة حين تتواجد في سياق فني خاطىء غير سياقها، هنا في هذه الساحة التي ما زالت تسكن روحي، امضى حسين عشرين ظهيرة شتوية دافئة، بانتظار اخذ الابر من المشفى القريب، بترا ومهيب وانا، نجلس معه او نمشي، حين تتسلل لحسين رغبات الصمت والهرب والحزن، كنا نهرب بعيدا عنه تاركينه، الى حالاته واسئلته وكائناته، الشجر هناك عال وكثيف واخضر جدا، والعشب طويل، وناعم، نصف الساحة معبد ونصفها غير معبد، لكن حسين كله كان جميلا تلك الظهيرة.

الظهيرة الاخيرة، معه، كنا نمشي، معه جيئة وذهابا على القسم المعبد من الساحة، كان يلبس طاقية صوف وبالطو شتويا طويلا، كان لا يسأم من الحديث في الفن والفلسفة، والادب والحياة، مهيب يتسكع تحت الشجر، بترا تحدق في العشب، انا اسير مع حسين وهو يقول لي: اقتل احباءك، اقتل احباءك، مرة من المرات، عرضت عليه نصا لي، قراه باهتمام كبير، ثم القاه نحوي، وهو يقول، كمية الادعاء في نصك كبيرة، كن عفويا، واترك كائناتك تتحرك كيفما تشاء، لا اطلب منك ان تغيب عن الوعي، كن في البرزخ، بين الصحو والغيبوبة. يصمت واصمت مأخوذا بصدقه، ووفائه للفن، ونمشي، نمشي تحت الشمس الحنون، في الساحة التي سيدفن فيها بعد اشهر قليلة سبعة عشر شهيدا سقطوا في رام الله اثناء الاجتياح الكبير، لم يجد الناس وقتا بسبب منع التجول لدفن الشهداء في المقابر العادية، فدفونهم هنا مؤقتا، لكن المؤقت صار ابديا، وصار الشهداء جيرانا لخطوات حسين التي ما زلت اسمع وقعها الخافت على القسم المعبد من الساحة، ساحة الشهداء، ساحة خطوات وتحديقات وحالات وصوت صديقي، لا ادري كيف استيقظ على جسدي احيانا وهو يقف هناك، تحت شجرة، فوق صخرة، على المساحة المعبدة، عن ماذا ابحث هناك؟

فقد مات حسين ولم يعد ياتي الى هنا، لم يعد جسده يحتاج ابرا، عن ماذا ابحث هناك اذن؟

لا اجابة، لكن احس بنشوة قاسية تغسلني، كأن ثلجا يصافحني حين المس عشبة، مر فوقها حسين، كأن غيمة تطير من فرع من فروع شجرة مر تحتها حسين، ما زال يسكنني هذا المكان، يسكنني حتى الالم، حتى الحب، حتى حسين.

رام الله - شتاء 1996

---

* كاتب من فلسطين